المحاضرة الثالثة
النظم عند عبد القاهر الجرجاني

إن النظم كنظرية لم ير النور ولم يعرف الطريق الصحيح إلا في ارتباطه بإعجاز القرآن الكريم، وأن جل المؤلفات التي عنونت بـ"نظم القرآن"لم ترق إلى الوصف العلمي الدقيق الذي يبرز ماهية النظم وآلياته،ويكشف عن مراحله وخطواته، فكانت أحكاما ذوقية وآراء سطحيةغلبت الجانب الديني على الجانب العقلي،لتصل إلى أن القرآن معجز بنظمه،إلا عبد القاهر الجرجاني الذي عنون كتابه"دلائل الإعجاز" انطلق فيه من فكرة أن القرآن معجز وغدا باحثا عن صوره، وكاشفا عن طرقه،ليصل بطريقة عقلية إلى النظم، ويمكن التمثيل لذلك بالجدول الآتي:

رحلـــة الإعجـــاز	المنطلق	الإجراء	النتيجة
الإعجاز قبل عبد القاهر الجرجاني	نظم القرآن	أحكام انطباعية	القرآن معجز
عند عبد القاهر الجرجاني	القرآن معجز	قواعد علمية	نظم القرآن

ومن هنا يتبين لنا أن الاختلاف يكمن في نقطتي البداية، وما ينبغي البحث عنه هو الكيفية التي وصل بها عبد القاهر الجرجاني من الإعجاز إلى النظم، وما هي المحطات التي توقف عندها أثناء البحث والتنقيب؟

يبتدئ صاحب كتاب دلائل الإعجاز-بعد حمد الله والصلاة على رسوله مباشرة-بقوله"هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة....معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام:تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما"[1]

ولعل عبد القاهر بصنيعه هذا قد أعطى المفاتيح التي يمكن من خلالها فك أغلال هذه النظرية وهي:النظم، النحو، والتعلق، وسيرتبط النحو بالنظم ويكون عموده الفقري ومتكأه الوحيد الذي يعتمد عليه، أما التعلق فهو الصورة التي يكون عليها ذلك البناء.

ثم يقر في مرحلة ما مفهوم النظم بصورة صريحة فيقول"اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"[2]

إن القراءة المتمعنة لهذين القولين تجعلنا ندرك حقيقة التصور الذي بناه عبد القاهر الجرجاني لمفهوم النظم،ويكمن ذلك في أمرين:

الأول :سطحي وهذا بإشارته إلى مقومات أي عملية لغوية، ويظهر ذلك من خلال قولة"أن تضع كلامك" فهذا الأمر يستدعي منطقيا ثلاثة عناصر على الأقل وهي:

1عبد القاهر الجرجاني،دلائل الأعجاز ص ص4.3

[2]نفسه ص81

-المتكلم أو الباث
-المتلقي أو السامع
-الرسالة أو الموضوع المبني وفق قواعد متفقة بين المتكلم والمخاطب

الثاني :عميق، وهو الذي فصل فيه، ويظهر في قوله"ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض" وهنا يظهر الجانب التأليفي الذي تتعدد حدوده وتختلف درجاته،إذ يبدأ من الكلام العادي ويصل إلى الإعجاز القرآني.

إن هذه الجوانب هي التي حاولت نظريات الدرس اللغوي الحديث أن تتناول فرعا منها، وتجعله أساسا في تحليلها، ويمكن تبيين ذلك بالمخطط التالي:

اتجاهات الدرس اللغوي الحديث

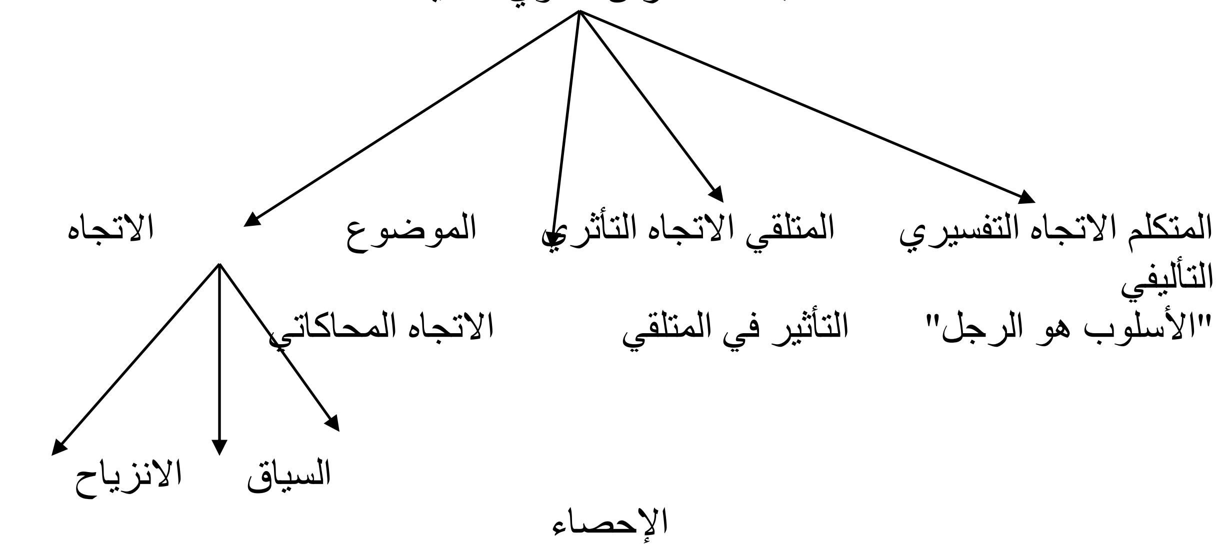

لقد كان لكل عنصر من هذه العناصر نصيبه الخاص في منظور عبد القاهر الجرجاني؛إذ أبان فحواه، وشدد على جدواه،فصهرهم جميعا في مفهوم جديد،ووضعهم في قالب فريد،غير أن الملاحظ هو أنه ركز على الجانب التأليفي لأنه يريد أن يبني نظرية يدلل من خلالها على الإعجاز القرآني،وهو ما يضطرنا لتمحيص هذا المفهوم وفقا لقوله"أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو" ولا يتسنى لنا هذا إلا إذا قمنا بتفكيكه وفق المخطط الآتي:

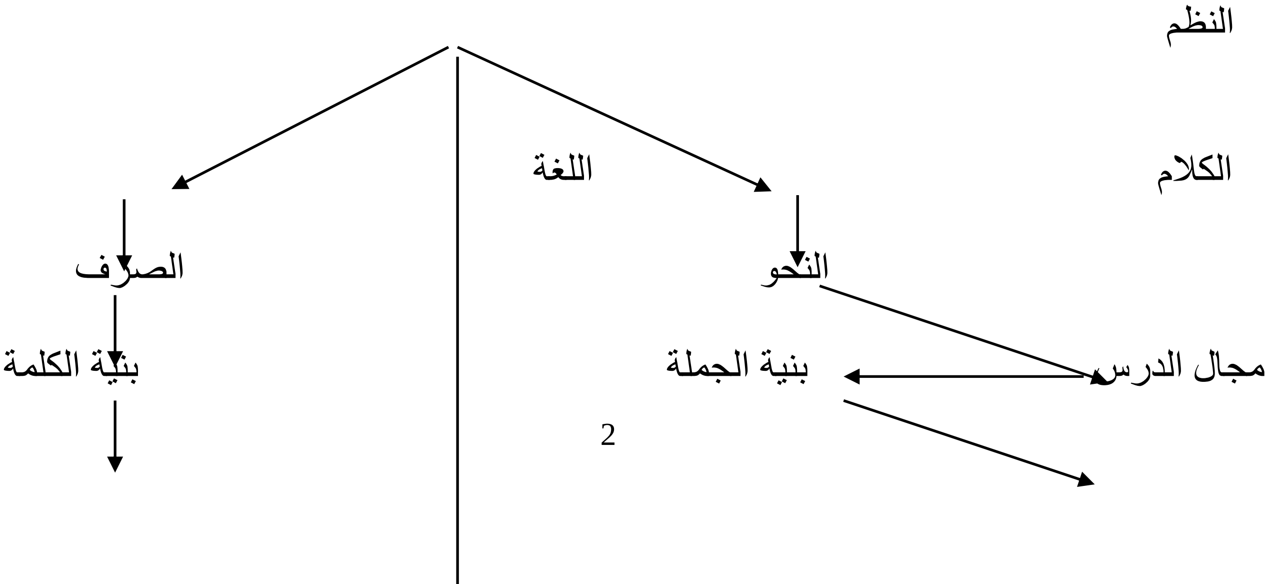

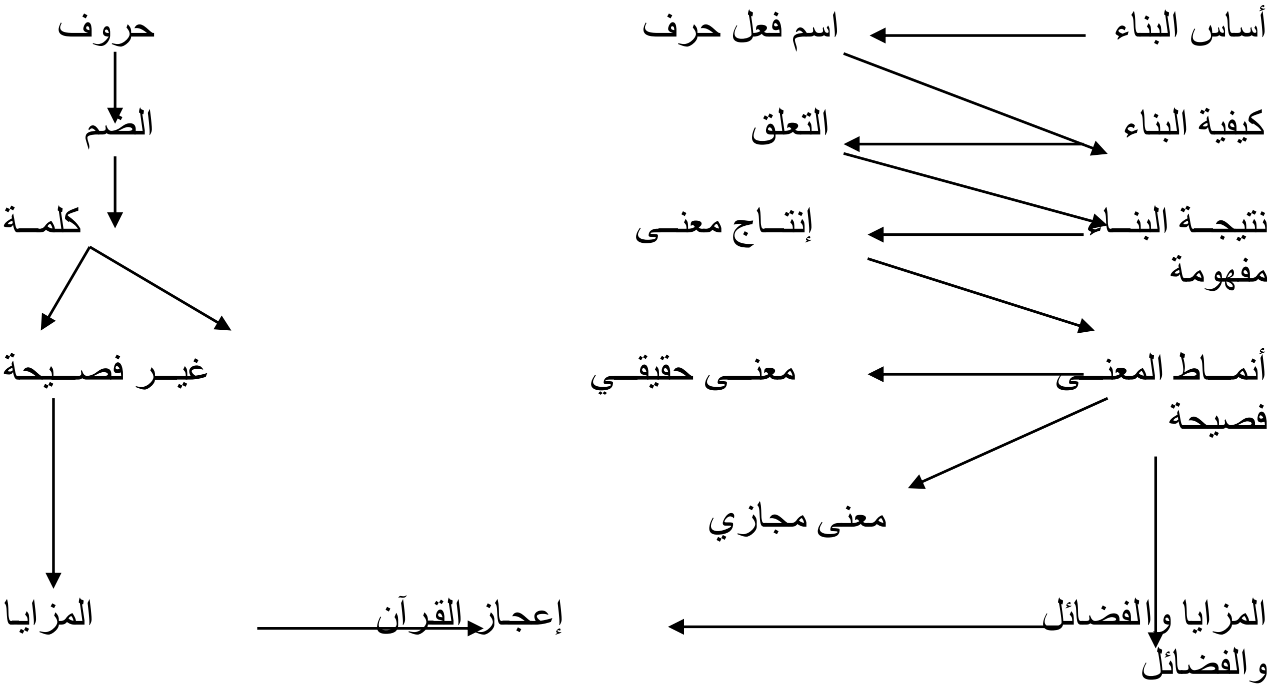

إنه لا يمكن فهم نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني إلا من خلال تفصيل رموز هذا المخطط، ولا يتأتى ذلك إلا باستخلاص أهم المعايير التي بني عليها:

ففي المقام الأول ينبغي التفريق بين اللغة والكلام ودور الفكر وكيف نظر إليهما عبد القاهر الجرجاني.

وفي المقام الثاني ينبغي معرفة مدلول النحو مربوطا بالصرف، وما مدى وجود هذا الأخير ودوره في النظم.

أما في المقام الثالث فينبغي تفتيت التعلق وفق ما تقتضيه قواعد اللغة وما تتبناه أطر الكلام.

أما في المقام الرابع فينبغي تحديد المعانى وأنماطها عند عبد القاهر.

أما في المقام الخامس فينبغي التعرض إلى قضية المزايا والفضائل.

وفي نهاية المطاف يمكن أن نصل إلى قضية الإعجاز القرآني.

ـ الفكر وجدلية اللغة والكلام:

إن ما حاولنا توضيحه من خلال تفكيك نظرية النظم إلى مخطط واضح المعالم جليها،لا يعني أنه يمكن فهم تمفصلاته بصورة مجزأة، إذ تعد أفكار عبد القاهر متلاحمة إلى الحد الذي لا يمكن فصل جزء عن آخر، بحيث يجد الباحث نفسه مضطرا للخوض في جزئية هي من سابقتها جزء لا يتجزأ، وهو ما يجعله في مرحلة ما مربوطا بأشياء في نوع من التداعي الحر، تفرضه عليه طبيعة التفكير البلاغي والمادة البلاغية لعبد القاهر الجرجاني.

لقد احتفت العديد من الدراسات المتمركزة حول الظاهرة اللغوية بما كتبه عبد القاهر الجرجاني، بل وعدوا أفكار هذا الأخير رائدة ليس من موقع الزمان والمكان فحسب ،بل وفي العمق الدلالي أيضا، خاصة إذا علمنا أن الدرس اللغوي الحديث قد بني على أساس التفريق بين اللغة والكلام، ولاغرو، فعبد القاهر قد فرق بينهما ليس من باب التنظير للغة وإنما بصورة عملية فرضتها طبيعة بناء نظرية ،الهدف منها فهم الإعجاز القرآني لا بناء نموذج يمكن أن يرتقى إليه، فلا يمكن أن نتكلم إلا حيث نفكر، وتبقى أفكارنا حبيسة أنفسنا إذا لم نجد

لها لغة تستعمل الكلام في تبليغها، ولكن ما يهمنا هو وسائل الربط التي وضعها عبد القاهر لوصل الفكر باللغة والكلام في إطار بناء نظرية لغوية تسمح بالوقوف على الإعجاز القرآني.
لم يكن غوص عبد القاهر في هذه القضيه خارجا عن الإطار الذي تبناه للإعجاز القرآني، هذه القضية التي أخذت طورا جديدا بتسرب بعض الأفكار إلى المجتمع الإسلامي،خصوصا تلك التي تتصل ببعض معتقدات الديانات الأخرى،ومن ذلك القول في التوراة وأنها مخلوقة،والقول في عيسى وأنه غير مخلوق،لأنه كلمة الله وكلمة الله لا يصح أن تكون مخلوقة[3]
ونتيجة لذلك أخذت قضية خلق القرآن حيزا كبيرا،واختلف المسلمون حولها تبعا لمنطلقاتهم الفكرية والعقدية،وأساس اختلافهم حول صفات الله،ومنها صفة الكلام،وهل صفات الله هي ذاته أم هي شيء زائد عن الذات؟
وقد نفى المعتزلة الصفات عن الله ورأوا أن ما ذكر منها،كالعالم والقادر والمريد،إنما هي أسماء للذات، فالذات هي الصفات،وحجتهم في ذلك أن القول بوجود هذه الصفات يعني تعدد القدماء، أما المقصود بكون القرآن كلام الله،"لأنه خلق الله من غير واسطة، وهذا هو الفرق بينه وبين كلامنا ، فكلامنا وألفاظنا تنسب إلينا، وأما القرآن فهو خلق الله مباشرة، والحروف التي نكتبها في المصحف أو ننطق بها من صنعنا،وإنما وجب التعظيم لها لأنها دالة على المخلوق لله"[4]
أما أهل السنة فقد أثبتوا الصفات لله، وذلك في رأيهم لا يؤدي إلى تعدد القدماء، فالذات واحدة برغم تعدد صفاتها، والله لم يزل متكلما إذا شاء والكلام صفة كمال،وما يتكلم به ليس مخلوقا منفصلا عنه وقالوا"القرآن كلام الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق"[5]
"ويتدخل أبو الحسن الأشعري في محاولة توفيقية، فيقول: إن كلام الله يطلق على إطلاقين كما هو الشأن في الإنسان،فالإنسان يسمى متكلما باعتبارين:أحدهما الصوت والآخر بكلام النفس الذي ليس بصوت ولا حرف، وهو المعنى القائم بالنفس[6] الذي يعبر عنه بالألفاظ،فإذا انتقلنا من الإنسان إلى الله رأينا أن كلامه تعالى يطلق بهذين الإطلاقين :المعنى النفسي وهو القائم بذاته، وهو الأزلي القديم، وهو لا يتغير بتغير العبارات، ولا يختلف باختلاف الدلالات،وهذا هو الذي نريده إذا وصفنا كلام الله بالقدم،وهو الذي يطلق عليه كلام الله حقيقة،أما القرآن-بمعنى المقروء المكتوب-فهو بلا شك كما يقول المعتزلة حادث مخلوق،فإن كل كلمة تقرأ تنقضي بالنطق بما بعدها،فكل كلمة حادثة،فكذا المجموع المركب منها،ويطلق على هذا المقروء المكتوب "كلام الله" مجازا"[7]
وعليه "فقد اتصل البحث في صفة الكلام،إذا على نحو ما بمسألة الآداء اللغوي،أو بالقدرة على التعبير في شكل مستويين:الأول ما يدور في النفس الإنسانية من معاني وأفكار، والثاني:يتصل بكيفية الأداء الإنساني للأفكار في شكل أصوات منطوقة أو حروف مكتوبة

---

[3]ينظر:أحمد أمين ،ضحى الإسلام،دار الكتاب العربي،لبنان ،ط10،ج3، ص163.
[4]نفسه ج3ص36
[5]ينظر أحمد أمين ،ضحى الإسلام ،ج3ص39
[6]يرى ابن سنان الخفاجي أن الذي حملهم على القول بأن الكلام معنى في النفس هو القول بأن كلام الله عز اسمه قديم،ليسوغ لهم قدمه على بعض الوجوه.ينظر- الخفاجي:محمد عبد الله بن سنان ،سر الفصاحة،تحقيق:داود غطاشة الشوابكة،دار الفكر،الأر دن، ط1(1427،2006) ص35
[7]أحمد أمين ،ضحى الإسلام، ج3ص 41.40

وما دام الأمر كذلك كان السؤال الذي طرح نفسه تلقائيا هو:هل هناك انفصال بين ما يخطر في النفس من أفكار ،وما تستخدمه من أصوات لغوية؟هل يمكن أن يكون هنالك فكر بلا لغة،أو لغة بلا فكر"[8]

إن كل الأفكار التي سيطرحها عبد القاهر تعد انعكاسا لطبيعة مذهبه العقدي ،ولا غرو أن نجدها تتوافق مع ذلك،فهو"سني المذهب،ومكمن المزية القرآنية عنده من حيز المعاني،والكلام عبارة عن المعاني القائمة في النفس ، بقطع النظر عن علاقتها بالألفاظ،فلا بد من أن ترتكز نظرية الفصاحة عنده على المعاني،وعلى البنية المعنوية بالذات،وكان لابد من أن ينطلق من التركيب أساسا للبيان"[9]،

إن طبيعة الدراسة البلاغية تحتم على البحث التوجه إلى دراسة الكلام إذا أقررنا بترجمة البلاغة إلى rhétorique أما إذا حاولنا تجاوز هذا المفهوم لنقدر البلاغة العربية قدرها ونوفيها حقها، فإن مستوى اللغة يعد ضروريا، ذلك أن لغة القرآن منفردة في بنيتها، ووحيدة في طبيعة العلاقات التي تجمع بين أنساقها،ومن هنا كان لزاما علينا في البداية تحديد كل من اللغة والكلام كما فهمهما عبد القاهر الجرجاني.

يعتبر الدرس اللغوي الحديث أن اللغة نظام وواقعة اجتماعية مستودعة في دماغ كل عضو من الجماعة، وهي كل متكامل في عقول المتكلمين بها، لها من الأسس والقوانين ما يجعلها نظاما عاما لا يمكن الخروج عنه، وفهمها يكون وفقا لقوانينها،كما أنها جهاز علاماتي متميز يميز العملية التواصلية التي لا يمكن أن تنشأ من دونها، إذ لابد من مدلول يختلج في ذهن الباث يبحث له عن دال ينبئ به ويخبر عنه، وهما بذلك –الدال والمدلول-طرفا العلامة اللغوية.

والكلام هو الآلية الوحيدة التي تخرج اللغة من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وهو نشاط شخصي يطابق في مفهومه الأداء الذي وضعه تشومسكي، واختلاف قدرات المتكلمين جعل منه:

أ- أنساقا فردية خاضعة لإرادة المتكلمين

ب-أفعالا فونولوجية إرادية أيضا وضرورية لتنفيذ هذه الأنساق"[10]

وحقيقة الأمر أن التمييز بين اللغة والكلام لا ينبغي أن ينظر إليه من ناحية المفاهيم فحسب، بل ينبغي أن يتحدد من خلال الأهداف التي رسم لأجلها، والوظيفة التي يود تأديتها، ذلك أن الوظيفة قد تسهم في تبيان طبيعة الشيء أكثر من الحد ذاته، ولعلنا بإقرارنا هذا نكون قد نأينا بأنفسنا عن متاهات التعاريف والحدود لنغوص في لب الظاهرة اللغوية، فاللغوي هدفه بناء جهاز علاماتي يستجيب لمقتضيات العملية التواصلية بصورة تداولية، وذلك بتسمية الأشياء في نطاق يربط الدال بمدلوله متجاوزا الاعتباطية ومركزا قدر الإمكان على حقيقة الأشياء ومدى فاعليتها وتفاعلها، وتصبح تلك الأسماء والمسميات في مرحلة ما مقترنة بها ودالة عليها، ولا يمكن الخروج عن نواميسها إذ صفتها التوقيف والتقدم بالتعريف على حد تعبير الجرجاني

إن هذا الطرح هو ما اعتمده عبد القاهر الجرجاني وذلك بإلزامه المتكلم بضرورة اتباعها وفي ذلك يقول"إذا نظرنا وجدناه-المتكلم- لا يستطيع أن يصنع باللفظ شيئا أصلا ولا أن

---

[8]قضايا الحداثة ،محمد عبد المطلب،مكتبة لبنان،بيروت ط1،1995،ص ص30.31

[9]علي مهدي زيتون،إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي،دار المشرق،لبنان،ط1، 1992، ص212

10 De Saussure F : Cours de linguistique générale. Edition Talantikit .Bejaia .Algérie.2002, p19

يحدث فيه وصفا،كيف؟ وهو إن فعل ذلك أفسد على نفسه وأبطل أن يكون متكلما،لأنه لا يكون متكلما حتى يستعمل أوضاع لغة على ما وضعت عليه"[11].

كما أن حصره اللغة في خانة التوفيق نابع من مبدأ أن التواصل لا يمكن أن يتحقق إلا بواسطة جهاز مفاهيمي موحد إذ"محال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف"[12]

وإذا كانت اللغة عاقة، فإن الكلام مطيع، كونه يخرج اللغة من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، ويتيح للمتكلم حرية التصرف في بناء نماذجه اللغوية وفق الكفاءة التي يمتلكها، وهو من هذه الناحية قد أعطى اللغة قيمة وجودية ذلك أن "الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغةلم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن ليضم بعضها إلى بعض"[13] وتظهر بصورة فيزيولوجية لتشكل ركنا من أركان النظام التواصلي[14].

وإذا كان هذا هو المفهوم الذي أقره عبد القاهر لمفهومي اللغة والكلام فإنه ركز أيضا على كفاءة الباث اللغوية إذ هي الوحيدة التي تمكنه من تجاوز أوضاع اللغة إلى معاني ودلالات تلعب العلاقات التركيبية والترابطية-syntagmatic and paradigmatic دوا محوريا.

إن محورية التركيب نابعة من صهره معاني الوحدات اللغوية التي تتآلف فيما بينها، وتلعب العديد من الأطراف الفاعلة في الظاهرة اللسانية لتجعل منها دالا مرتبطا بسياق يفرضه الحال أو المقام، كما أنه-التركيب-الكفيل الذي تتكئ عليه الوحدات اللغوية في ترابطها في السلسلة الكلامية الواحدة كترابط الأصوات في الكلمة الواحدة، ويمكن لكل وحدة أن تضيف إلى المعنى العام معاني إضافية قد تؤديها "الفضلة" كما يعبر عن ذلك في النحو التقليدي.

ويعبر عبد القاهر عن هذا قائلا"واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت:ضرب زيد عمروا يوم الجمعة ضربا تأديبا له ،فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معاني كما يتوهمه الناس، وذلك أنك لم تأت بهذه الكلمات لتفيده أنفس معانيها، وإنما جئته بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو ضرب وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق"[15]

فالعلاقات التركيبية بهذه الصورة مسئولة عن طرق تعليق الكلم بعضها ببعض، وإخراجها في بنية لغوية صحيحة، حتى تكون الأحكام مفهومة والآراء معقولة، أما طبيعة تلك الأحكام فلا علاقة للغة ولوحداتها بذلك، ذلك أنك"لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت وتنفي، وتنقض وتبرم، فالحكم بأن الضرب فعل لزيد، أوليس بفعل له، وأن المرض صفة له أو ليس بصفة له شيء يضعه المتكلم، ودعوى يدعيها، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب، واعتراف و إنكار، وتصحيح أو إفساد، فهو اعتراض على المتكلم، وليس للغة من ذلك سبيل، ولا في قليل ولا في كثير"[16]

إننا إذ حددنا حدود كل من اللغة والكلام فهذا لا يعني الانفصال، ذلك أن الوظيفة الأساسية للغة على حد تعبير جاكبسون هي الوظيفة التواصلية، هذه الأخيرة التي اعتبرها ابن جني

11عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص402.401

[12]نفسه ص212

13عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص539

[14]وظيفة اللغة عند الجرجاني هي نقل ما يقصده المتكلم إلى السامع ،والمدرسة الوظيفية تراها كوسيلة اتصال بين الناس.ينظر:علي أحمد أبو زقية،المبادئ العامة للسانيات والأسلوبية،رسالة ماجستير،جامعة الجزائر1982ص16

15عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص413

16عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة،تح محمود محمد شاكر،مطبعة المدني،مصر،ط1(1412،1991)ص373

طبيعة للغةفي حد ذاتها،كونها مجموعة من الأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[17]، بالإضافة إلى الوظائف الست الأخرى: اللسانية،الصوتية، التعبيرية، المرجعية والوظيفة الشعرية.
إن ما يهمنا هو الوظيفة الشعرية والتي يطلق عليها البعض الجمالية أو البلاغية، واهتمامنا بها نابع من كونها تركز على الرسالة كونها رسالة، بعبارة أخرى ، تستبعد جميع عناصر الخطاب لتركز على الخطاب في حد ذاته، وفي هذا المستوى يعطى الدال أهمية موازية للمدلول أو يتفوق عليه قليلا.
إذا كانت الشعرية تعنى بالبحث عن الميزات التي تجعل من الخطاب خطابا بغض النظر عن طبيعته، فإننا إذا أسقطنا هذا المفهوم على القرآن أمكننا الكلام عن الإعجازية، بعبارة أخرى البحث عن ميزات القرآن المتفرد بها حتى يكون قرآنا.
وإذا كانت هذه هي طبيعة اللغة والكلام فإنه لا يمكن التكلم عنهما بمنأى عن الفكر، إذ يعد هذا الأخير محركهما وباعث الروح فيهما، فلا يتصور لغة دون كلام كما لا يمكن تصور كلام دون فكرة معلومة وقضية مرومة، إذ"لا يكون ترتيب في شيء، حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة"[18] ومن هنا تكون الظاهرة اللغوية في جزئياتها المختلفة نتاج ثالوث يشكل الفكر واللغة والكلام أضلاعه، وفي هذا الصدد يقول الجرجاني:"لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في النفس لم تحتج إلى أن تستأنف في ترتيب الألفاظ بل تجد أنها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها"[19]ويمكن إيجاز هذا المسار وفق الخطوات الآتية:
حاجة الباث إلى فكرة يروم إخبارها ،أو قضية يستهدف طرحها ،فيحتاج إلى الرموز والعلامات التي يمكنها أن تحمل هذه الأفكار، وتستطيع الإفصاح عنها،ثم يقوم بترتيب هذه الرموز والعلامات على النحو الذي ترتبت عنده المعاني في نفسه،ذلك أنه"ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها إلى بعض وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض ، لا أن ينطق ببعضها في أثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلق، ويعلم كذلك ضرورة إذا فكر أن التعليق يكون فيما بين معانيها لا فيما بين أنفسها، ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلقا فيما بين لفظتين لا معنى تحتهما لم نتصور"[20]
ولهذا يقال: إننا حين نفكر لا نستطيع أن نجعل الفكر وجودا ما لم تكن اللغة هي صانعة هذا الوجود وحقيقته بل إن اللغة هي التي تعكس الفكر بعد أن تعطيه خلقه وتجسيده، ولقد ننتهي إلى خلاصة أن لا فكر من غير لغة.
من هنا، نجد أنه بتوافر العناصر الثلاثة يمكن بناء خطاب، غير أن هذا الأخير له مستويات عدة، فالخطاب العادي التواصلي يختلف عن الخطاب الأدبي، وهما بدورهما يختلفان عن القرآن الكريم إذا اعتبرناه خطابا تجوزا، وموطن الاختلاف يكمن في الآتي:

17ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر بيروت .ج1ص33
18عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ،364
19عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص54.53
20نفسه ص 416

أن الخطاب التواصلي يشترط اتفاقا مبدئيا في الصوت والنحو والدلالة.
أما الخطاب الأدبي فيمكنه أن يخرق هذه القواعد الثلاثة وفق رؤية يرتضيها صاحب النص.
أما الخطاب القرآني فله ميزة تبدأ من الكلام العادي وتنتهي إلى الجانب الإعجازي.
ومن هنا كان لزاما علينا منهجيا أن نتجاوز بصورة مؤقتة هذا الإشكال-هل القرآن خطاب أم لا- لنغوص في إشكالية هي أولى، ومن سابقتها أحرى، وهي كيفية بناء الكلام أو بعبارة أخرى: ما هي معايير التمايز بين ملفوظات المتخاطبين انطلاقا من الثالوث المنطقي في العملية التخاطبية؟
إنه وفي مرحلة أولى يمكن طرح الفرضيات الآتية:
اختلاف الأفكار راجع إلى طبيعة عقول المتكلمين وطموحاتهم وحتى البيئة التي يعيشون فيها، وهي مسئولة عن الوحدات اللغوية مفردة.
واختلاف اللغة راجع إلى القدرات الذهنية والخلفيات المعرفية للمخاطب.
أما الكلام فهو راجع إلى قدرة المتكلم في بناء نماذج لغوية ذات دلالة محددة، وهو بهذا مسئول عن المعنى الناشئ عن صهر تلك الوحدات اللغوية، وبما أن الكلام هو الإنجاز الفعلي للغة التي هي انعكاس للفكر، فإنه يمكن أن يكون دليلهما والدال عليهما .
والكلام في النحو التقليدي هو اللفظ المركب المفيد بالوضع العربي، وبما أنه المرآة العاكسة فهو أساس التفاضل من خلال جزئيتيه اللفظ والمعنى ،ومن هنا نكون مضطرين للبحث على أساس التفاضل بينهما.

- الفصاحة والبلاغة وجدلية اللفظ والمعنى

تستقي ثنائية الفصاحة والبلاغة أهميتها ليس من كون النقاد والبلاغيين اختلفوا حولها وذهبوا مذاهب شتى وحسب، وإنما في إعطاء عبد القاهر لها بعدا ترتقي من خلاله من الجانب الجمالي إلى الجانب الأسلوبي،إذ هما معيارا بلاغة النص وجودته ،وبهما تتحدد ميادين الدراسة الأسلوبية وتتكشف، وهما بهذا لن يخرجا عن الإطار العام الذي وضعه عبد القاهر لبناء نظريته، هذه الأخيرة الذي يعد النحو عمودها وكل الأجزاء تدور حولها، وتستمد قيمتها من مدى مواءمتها له، ومطابقتها إياه.
ولعل ربط الفصاحة والبلاغة باللفظ والمعنى لم يكن اعتباطيا ،ذلك أن هذين الأخيرين قد كانا أساس المقارنة ووجهي المفاضلة ،كما أن الفصل بينهما سيؤدي إلى العديد من المضايقات المنهجية يأتي التكرار في مقدمتها،إذ الحديث عن أحدهما يفضي بالضرورة إلى ذكر الآخر والتنقيب عنه،
ومهما يكن من أمر ،فإنه من الواجب تحسس الأطر التي من خلالها تمكن عبد القاهر من صهر كل هذه المفاهيم المنفردة وإعطائها بعدا يجمعها في نظرية واحدة، ومع هذا، فإنه لا مفر من النظر إلى هذه الأمور مجتزأة وذلك بتحقيق الأمر في القيمة اللغوية للفظ، وبعد ذلك في القيمة الدلالية للمعنى، وكيف يمكن أن يرتقي الكلام بعد ذلك إلى درجة الفصاحة والبلاغة.

1-الفصاحة والبلاغة:

يجمع عبد القاهر الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة في كف واحدة،لأنها "مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا أو تكلموا،وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة،فينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى،غير وصف الكلام بحسن لدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة "[21]

وإذا كان فضل شيء على شيء يشير إلى طابع المفاضلة،فإنه من المنطقي أن يبرهن على فضل القرآن على سائر أنواع الكلام،وهو ما وقف عنده الجرجاني حين قال"والمجانس له درجات كثيرة،وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد كذلك يفضل بعض الكلام بعضا،ويتقدم منه الشيء الشيء،ثم يزداد من فضله ذلك ويترقى منزلة فوق منزلة،ويعلو مرقبا بعد مرقب،ويستأنف له غاية بعد غاية،حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع،وتحسر الظنون،وتسقط القوى،وتستوي الأقدام في العجز "[22]

وإذا كان إقرار الفضل سهلا فإن ما أرق العلماء وحير العقلاء هو في طبيعة وأساس المفاضلة،فكيف يرقى كلام حتى يصل حيث تنقطع الأطماع؟أبتنميق الألفاظ وتزويقها كما ادعى الرماني[23] وتبعه في ذلك ابن سنان الخفاجي[24]؟ أم في شيء آخر؟

لقد كان عبد القاهر واضحا في الفصل في هذه المسألة فيقول"لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا ما،وأن تصفها وصفا مجملا،وتقول فيها قولا مرسلا،بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل،وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم،وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا"[25]

إن طرح عبد القاهر هذا يلزمه بصورة آلية إلى تبيين تلك الصور وأساس فضلها من جهة ،كما أنه يلوح إلى ما قاله الرماني"دلالة الأسماء....محدودة،وأما دلالة التأليف فلا نهاية لها"[26] وقوله"البلاغة عبارة عن إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[27]،وهو ما يقره أيضا حين يرى أن البلاغة"غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين،وآنق وأعجب....ولا جهة لاستعمال هذه الخصال، غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته،ويختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية"[28]، وهو ما نجده عند الباقلاني الذي سبق الجرجاني في حديثه حين رأى أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض لذلك يجب اختيار اللفظ الأقرب إلى الدلالة والأوضح في

---

[21]عبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز43

[22]نفسه35

[23]الرماني:أبو الحسن علي بن عيسى :النكت في إعجاز القرآن،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،تحقيق:محمد خلف الله أحمد،محمد زغلول سلام،دار المعارف،مصرط3، 1974 ص76

[24]الخفاجي،سر الفصاحة58

[25]عبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز37

26الرماني ،النكت في إعجاز القرآن ص107

27نفسه ص75.76

28عبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز43

الإبانة عن المعنى شرط أن يكون غير مستكره اللفظ على الأذن،غير مستنكر المورد على النفس[29]

والفرق بين الرماني والجرجاني أن الأول ركز على الطبيعة الاتصالية للكلام أما عبد القاهر فقد ركز على طابع الكشف ليتوافق ذلك مع مذهبه السني الذي يرى أن لا بلاغة إلا في المعنى إذ يقول"ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[30]

ثم يحاول عبد القاهر تفصيل ما أجمله في البلاغة بما طرحه في النظم وما يتعلق به من أمر النحو والذي إن دل على شيء فإنما يدل على التزام عبد القاهر بمذهبه السني وموقفه من الكلام،

2-اللفظ في مفهوم عبد القاهر الجرجاني:

استعمل عبد القاهر الجرجاني مصطلح"الكلمة"إلى جانب مصطلح "اللفظ" ومن الاستقراء الناقص لمنتجاته البلاغية نجد أنه يقرن الأولى بالمتكلم في حين يربط الثانية بالمتلقي أو السامع والمخاطب على حد تعبيره،ولكن يجدر بنا في هذا المقام أن ندلل على فعله هذا.

إن الذي سيسعفنا في هذا هو الدرس اللغوي الحديث؛حيث يستعمل مصطلح "العلامة اللسانية" وهي تعني عنده-أي العلامة اللسانية- ترابط صورتي الدال والمدلول،وإذا كان ذلك كذلك،تبين لنا أن عبد القاهر يقرن الكلمة بالمتكلم لأن هذا الأخير لا يمكنه أن ينطق شيئا دون أن يكون له علم بمدلوله، بعبارة أخرى لأن هناك ارتباطا في ذهنه بين الأصوات التي تلفظ بها والمعنى الذي يريده،أما كونه يقرن اللفظ بالمتلقي ؛فذلك لأن هذا الأخير قد لا تحدث عنده عملية الربط بين طرفي العلامة اللغوية فتصبح جوفاء لا معنى لها

ويمكن أن موضح هذا بالجدول التالي:

عبد القاهرالجرجاني	الدرس اللغوي الحديث
الكلمة	العلامة اللسانية
يعرف أهل اللغة الكلمة ومعناها بالوضع الاستعمالي فيصبح بينهما تلازم	ترابط صورتي الدال والمدلول بالذهن

ورغم التفريق هذا إلا أنه في بعض الأحيان يخلط بينهما،ونحن سنعتمد في تحليلنا على مصطلح اللفظ انطلاقا من كونه الأكثر شيوعا

لقد اختلفت نظرة عبد القاهر الجرجاني للفظ جذريا عن سابقيه، وأهم نقطة اختلاف هي أن من سبقوه حددوا للفظ قيمة في ذاته، في حين أن عبد القاهر اشترط قيمته بربطه بأجزاء الكلام الأخرى وذلك من جانبين:

أولا أن اللفظ ليس إلا رمزا للمعنى .

وثانيا أن مزيته تكمن في مدى مواءمته غيره، وفي هذا يقول:"الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض ،فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدليل على ذلك أنا إذا زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى مالا يشك عاقل في استحالته...ومن ذا الذي يشك أنا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلا

29ينظر : الباقلاني:أبو بكر محمد بن الطيب ، إعجاز القرآن تح:السيد أحمد صقر،دار المعارف،القاهرة .الباقلاني، إعجاز القرآن ص63

30عبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز 50.49

من أساميها، لو كان لذلك مساغ في الفعل لكان ينبغي إذا قيل زيد أن تعرف المسمى من غير أن تكون قد شاهدته أو ذكر لك بصفة"[31] ويذكر في موضع آخر أن نظم الكلمة مرتبط بترتيب حروفها، وهي بهذا لا تحمل أي قيمة لغوية ذلك أنها "لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة...ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة نروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في بيت الحماسة :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحتري: وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في هذين المكانين مالا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكرير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، والالتباس والبهجة...فلو كانت الكلمة حسنت من حيث هي لفظ إذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبدا أو أن لا تحسن أبدا"[32]

ويقول في موضع آخر"فإنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير"[33]

وهذه الفكرة استمدها عبد القاهر من القاضي عبد الجبار حيث يقول"ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره"[34]

وهو ما يجعله لا يكترث للدراسة الصوتية للألفاظ في كتابيه كتلك التي قام بها معاصره الخفاجي[35]بغض النظر عن النقلة النوعية التي يمكن أن تحملها تلك الدراسة، مؤكدا أن الفصاحة تدرك بالعقل لا بالسمع[36]

وهو بعد أن شرح وعلل، وأثبت ودلل، أنكر على من سبقوه من اعتدوا باللفظ وجعلوا له مزية في ذاته فيقول"فإن أردت الصدق فإنك لا ترى في الدنيا شيئا أعجب من شأن الناس مع اللفظ ولا فساد رأي مازج النفوس وخامرها واستحكم فيها وصار كإحدى طبائعها أغرب من فساد رأيهم في اللفظ فقد بلغ من ملكته لهم وقوته عليهم أن تركهم وكأنهم إذا نوظروا فيه أخذوا عن أنفسهم وغيبوا عن عقولهم وحيل بينهم وبين أن يكون لهم فيما يسمعونه نظر، ويرى لهم إيراد في الإصغاء وصدر، فلست ترى إلا نفوسا قد جعلت ترك النظر دأبها ووصلت بالهوينا أسبابها فهي تغتر بالأضاليل وتتباعد عن التحصيل وتلقي بأيديها إلى الشبه وتنزع إلى القول المموه"[37]

وأكثر من ذلك فقد تحامل على المنتصرين للفظ واصفا إياهم بأبشع الصفات فيقول:"واعلم أن الذي هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالأباطيل في أمر اللفظ أنهم قد أسلموا أنفسهم إلى التخيل وألقوا مقادتهم إلى الأوهام، حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل، ودخلت بهم من فحش

31اعبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز لجرجاني،ص540.539

32عبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز لجرجاني ص48.47.46

33نفسه401

[34]القاضي عبد الجبار،المغني،ج16ص199

[35]ينظر:ابن سنان الخفاجي ،سر الفصاحة 13

[36]ينظر:عبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز ص64

[37]نفسه ص458

الغلط كل مدخل، وتعسفت بهم في كل مجهل، وجعلتهم يرتكبون في نصرة رأيهم الفاسد القول بكل محال، ويقتحمون في كل جهالة"[38]

وإذ ينتهي عبد القاهر من دحضه مزية اللفظ[39] في ذاته يشرع في التدليل على أن مزيته تكمن في مدى مواءمته غيره من الألفاظ وفي هذا يقر"كيف والألفاظ لا تفيد حتى تِؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في قفا" نبك من ذكرى حبيب ومنزل"،"منزل قفا ذكرى من نبك حبيب"أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان،نعم وأسقطت نسبه من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه،بل أحلت أن تكون له إضافة إلى قائل، ونسب يختص بمتكلم،وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب هوترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة"[40].

كما طرق مسألة زئبقية اللفظ، من خلال تلون دلالاته، فيقول معلقا على الاستعارة"إنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد...ومن خصائصها...إنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ،حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر"[41] وهذا الرأي هو امتداد طبيعي لرأي الرماني الذي يرى بمحدودية الألفاظ وارتباطها بالتركيب في توليد المعاني[42]غير أن "عبد القاهر الجرجاني قد أعاد خلق هذا الرأي من جديد حين خصصه،من بين أشكال الإسناد كلها،بالإسناد المجازي،وخرج من إطار توليد المعاني الكمية ليدخل في إطار توليد المعاني النوعية...وتبدو العلاقة واضحة بين جذرها الرماني وثمارها الجرجانية مع الفكاك القائم بين مذهبي الرجلين.فقد تحدث عبد القاهر باعتبار السامع "تعطيك" لاباعتبار الواضع.فجره هذا إلى الحديث عن المعاني التي تقدمها الألفاظ لا عن لألفاظ التي تقودها المعاني"[43]

ولهذا ،فلا قيمة للفظة في وضعها المعجمي السكوني،وهو ما يتفق مع المنطلق الفكري المرتبط بالمذهب السني الذي ارتضاه لحد الكلام في حد ذاته .

وإذ يقر عبد القاهر بضرورة ربط أجزاء الكلام فإنه قد كان"أسلوبيا إلى حد بعيد بتوخي الدقة العلمية في دراسة البيان دون أن يعير اهتماما لحسن الصورة اللفظية وما تجره من معايير لأنها قشور لا تكاد تمس اللباب في شيء" [44]

3-المعنى في مفهوم عبد القاهر الجرجاني::

لايخرج تصور عبد القاهر للمعنى هو ذاته عن الإطار الذي ارتضاه للإعجاز القرآني، والمتوافق أساسا مع مذهبه السني، ورؤيته لطبيعة الكلام،فهو يقر بأن إدراك المعنى لايتم عن طريق الحواس الخمس للإدراك ومنها السمع، وإنما عن طريق قوى نفسية هي القلب

38عبد القاهرالجرجاني، دلائل الإعجاز ص 415

[39]يستعمل عبد القاهر لفظ المزية والضم وقد استقاهما من القاضي عبد الجبار. ينظر المغني199/16

40 عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة ص 5،6

[41]نفسه ص 42،43

[42]ينظر :الرماني،النكت في إعجاز القرآن،ص86

[43]علي مهدي زيتون،إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي،ص291

[44]علي مهدي زيتون،إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي ص212

والفكر والروية والعقل والفهم، يقول"إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني،وتابعة لها،ولاحقة بها"[45]

إن كلام عبد القاهر هذا يدل على الطبيعة الآلية للكلام إذ إنك"لاتطلب اللفظ بحال،وإنما تطلب المعنى،وإذا ظفرت بالمعنى،فاللفظ معك وإزاء ناظرك"[46] وهو بهذا يدل على أن الظفربالمعنى، هو ظفر باللفظ، ولا مسافة فارقة بينهما، وإن كان المعنى أسبق في الوجود من اللفظ، وهو بهذا يخالف ماذهب إليه الخفاجي حين يقول"أن كل عاقل يجد في نفسه عند الكلام أمرا يضايقهويدبر في نفسه مايريد أن يتكلم به،حتى يخطب وينشد القصيدة من غير أن يحرك لشيء من ذلك جارحة بحال من الأحوال "[47]،فالعملية الكلامية عند الجرجاني هي أن "الإنسان يخيل إليه إذا هو فكر أنه كان ينطق في نفسه بالألفاظ التي يفكر في معانيهاحتى يرى إنه يسمعها سماعه لها حين يخرجها من فيه وحين يجري بها اللسان.وهذا تجاهل،لأن سبيل ذلك سبيل إنسان يتخيل دائما في الشيء قد رآهوشاهده أنه كأنه يراه وينظر إليه وأن مثاله نصب عينيه"[48]

إن كلا عبد القاهر ينم عن أمرين:

أولا: توافق كلامه مع أهل السنة في تصورهم لطبيعة الكلام فهو معنى قائم في النفس.

ثانيا:أن المعنى في تصوره بنية قائمة على خلاف اللفظ"أما نظم الكلم فليس فيه الأمر كذلك ،لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس،فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض"[49] فإذا قلت :ضرب زيد عمروا يوم الجمعة تأديبا له"ثبت أن المفهوم في مجموع الكلم معنى واحد لاعدة معاني وهو إثباتك زيدا فاعلا ضربا لعمرو في وقت وعلى صفة كذا ولغرض كذا،ولهذا المعنى تقول إنه كلام واحد"[50]

ويوضح هذه الفكرة قائلا:ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم إفرادا ومجردة من معاني النحو ،فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكر في اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلا له أو مفعولا"[51]

إنه يطرح هنا قضية ربط الكلام وفق ما يقتضيه علم النحو،وأجزاء الكلام عنده لاتعدو أن تكون اسما أو فعلا أو حرفا، وما ينبغي هو وضعها في قوالب لغوية، مما بنت عليه العرب كلامها، واصطلح عليه بالتعلق وجعله مرتكزا يخرج الآداء اللغوي من اللغو والهذيان، إلىدائرة التعبير عن الإحساس والوجدان،وهو بهذا يكون قد طرق أولى درجات البلاغة، وأحد أهم الوظائف اللغوية، وإذا كان التعلق أولى درجات بناء المعنى، وجب تحديد ماهيته وإبراز قوانينه ووظائفه.

- التعلق وإنتاج المعنى:

---

[45] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز54

[46] نفسه ص62

[47] الخفاجي ،سر الفصاحة ص36

[48] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز الدلائل، ص 416

[49] نفسه ص 49

[50] نفسه ص413،414

[51] نفسه ص410

قد جر تجريد اللفظ من أي مزية- وهو المعطى المادي المسموع والمكتوب- على عبد القاهر أن يقيم بنية مادية تكون بمثابة شكلنة-إعطاء شكل- للمعنى حتى يظهر فيه،ولهذا فإنه "وبالنظر إلى المنحى الفكري الذي تحرك الجرجاني وفقا له يتبين أن الرجل واجه مشكلة تبدو معقدة بعض الشيء، إذ كان أمامه مستويان عليه أن يتحرك بينهما وأن يوفق بين مقتضياتهما، فهو بين كلام لفظي منطوق يمكن ملاحظته،ونشاط عقلي لا يمكن أن يقع تحت طائلة الملاحظة، أي أنه كان يسعى للجمع بين النقيضين، وعلى الرغم من أن الكلام الملفوظ لم يكن يهمه في حد ذاته، فإنه الشيء الوحيد الذي يقبل الملاحظة، ومن هنا آثر الرجل توجيه دراسته إلى ما بين المفردات من علاقات بوصفها مجسدة للنشاط العقلي ومصورة له ، وهذه العلاقات بدورها ليست إلا إمكانات النحو واحتمالاته داخل التركيب، فهي التي تعطي الصياغة ملامحها الفنية في الشعر أو في النثر،كما أنها هي التي تخلصها من فوضى الجمع وعفوية التعبير،"[52]

إن التعلق هو أساس البناء، ولهذا جعله عبد القاهر أساس النظم فيقول: "ليس النظم سوى تعليق الكلام بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[53]

ويمضي بعد ذلك في تفسير كلامه قائلا:"والكلم ثلاث:اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما، فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه أوحالا منه أو تابعا له صفة أو تأكيدا أو عطف بيان أو بدلا أو عطفا بحرف، أو بأن يكون الأول مضافا إلى الثاني، أو بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل، ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول أو بأن يكون تمييزا، وأما تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلا له أو مفعولا، فيكون مصدرا قد انتصب به ويقال له المفعول المطلق أو مفعولا به أو ظرفا مفعولا فيه زمانا أو مكانا، أو مفعولا معه أو مفعولا به أو بأن يكون منزلا من الفعل منزلة المفعول وذلك في خبر كان وأخواتها والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام ... ومثله الاسم المنتصب على الأشياء، وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب:أحدهما أن يتوسط بين الفعل والاسم فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها أن تعدي الأفعال إلى مالا تتعدى إليه بأنفسها من الأسماء، والضرب الثاني من تعلق الحرف بما يتعلق به العطف وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الأول... والضرب الثالث تعلق بمجموع الجملة كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه"[54].

ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه الوجوه وجدناها قد جمعت في طياتها القواعد النحوية الكلية، والتي نجدها مبثوثة في بطون كتب النحو، وعبد القاهر إذ جمع هذه الأوجه فقد كان مدركا لها، ومحيطا بعلمها كيف لا وهو مؤلف كتاب المغي في النحو 30مجلدا،كما أن تيقنه هذا جعله يقر صراحة أن أي كلام ينبغي أن يعود إليها، وينبني عليها، وفي هذا يقول" فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك

---

[52]محمد عبد المطلب ،قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص59
[53]عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص 4
54نفسه ص ص6.5.4

الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه"[55]

وبعقلية المتكلم الذكي يطرح قضايا ويجيب عليها، وهو أن هذه المعاني لا يمكن للبدوي أن يعرفها، أو أن يسميها بمسمياتها، وهو ما يجعلنا نحكم على كلامه بالخطأ، ولكن عبد القاهر يرد على هذا فيقول"قالوا: لو كان النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط ولم يعرف المبتدأ والخبر وشيئا مما يذكرونه لا يتأتى له نظم كلام، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو قيل.. لم يضره أن يسمي زيدا مبتدأ"

وبرده هذا يكون عبد القاهر قد أبان أن الأصل ليس معرفة هذه الأشياء ومسمياتها بقدر ما هو الخضوع لها ومعرفة طرق معانيها، شأنها في ذلك شأن البدوي الذي كان هو ذاته أصلا من الأصول في وضع النحو العربي(السماع).

وإذا كان إنتاج المعنى لا يتأتى إلا بهذه الطريقة، فقد ذكره عبد القاهر وأشاد به في العديد من المرات"واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا مالا يجهله قائل، ولا يخفى على أحد من الناس"[56]

كما يقول أيضا"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها"[57] ويثبت هذا قوله حين يعلق على أبيات البحتري:

بلونا ضرائب من قد قرى فيما إن وجدنا لفتح ضربنا
هو المراد أبدت له الحادثات عزما ومسكا وأبــاطيلا

قائلا"إذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ووجدت لها اهتزازا في نفسك فعد فانظر في البيت واستقص في النظر،فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخى على

الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله"[58]

ولهذا نجد أن عبد القاهر الجرجاني"يتحرك نحويا من خلال مستويين:الأول البناء العقلي الباطني، والثاني البناء اللفظي الملموس"[59] وذلك أن النظم"ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم،وأنك ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك"[60]

إننا إذا أدركنا هذا الحد نكون قد بلغنا حدود الصحة اللغوية، وأدينا الوظيفة الشعرية ،وحققنا الغاية التواصلية، وهو ما تقوم به الجملة العربية في أبسط صورها، وفق العلائق النحوية التي رسمها عبد القاهر الجرجاني والمبينة في الأشكال الثلاثة التالية:

أ- صور التشكيل الاسمي:

	العلاقة	مثال توضيحي
	خبرية	محمد مجتهد

55عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص83.82
56نفسهص55
57نفسه81
58عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص85
59محمدعبد المطلب ،قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني 72
60عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز454

التشكيل الاسمي اسـم + اسـم	حالية	جاء محمد راكبا
	وصفية	محمد الكريم محبوب
	توكيدية	محمد نفسه موجود
	بدلية	الزعيم محمد موجود
	عطفية	محمد وعلي حضرا
	إضافية	غرف البيت واسعة
	فاعلية	أقائم محمد
	مفعولية	أمكتوب الدرس
	تمايز	عشرون درهما

ب- صور التشكيل الفعلي

التشكيل الفعلي	العلاقة	المثال
فعـل + اسم	فاعلية	حضر محمد
	مفعولية	كلمت محمدا
	مصدرية	فهمت فهما
	ظرفية	خرجت اليوم
	مصاحبة	سرت والنيل
	سببية	جئت إكراما لك
	نسخ	كان محمد مجتهدا
	تمايز	طاب الولد نفسا
	استثناء	حضر الطلبة إلا طالبا
فعـل + حـرف+ اسم	النسبة	مررت بمحمد
	المصاحبة	سرت والنيل
	الاستثناء	ما حضر إلا محمد
	العطف	محمد وعلي محبوبان

ج- صور التشكيل الحرفي

التشكيل الحرفي	العلاقة	المثال
حـرف + جملـة	النفي	ما حضر محمد
	الاستفهام	هل حضر محمد
	الشرطية	إن حضر محمد أكرمته
	النسخ	إن محمدا مجتهد
	النداء	يا محمد

لكن هناك من الباحثين من يرى أن هذه الاحتمالات التجريدية ترتبط بعدة ملاحظات لها أهميتها النظمية وهي:[61]

-يمكن إدخال عناصر إضافية على الجملة كالإفراد والتثنية والجمع

-هذا التجريد لا يقوم على مجرد الضم كيفما جاء واتفق وإنما يقوم على التعلق ومراعاة حال الكلام بعضه مع بعض،ثم مراد الكلام لتمام المراد منه

-هذا التجريد لا يتصل بأهمية بعض الأجزاء وعدم أهمية بعضها الآخر،أي ليس هناك عمدة وفضلة في التركيب النظمي

-أن التعلق لا يتصل أبدا بمنطقة المفردات، وما ورد في اللغة على هذا النحو يجب رده إلى المستوى العميق للكشف عن طبيعته التعليقية

وإذا كان الآداء اللغوي يخضع لهذه النواميس اللغوية،فلماذا تختلف طرق التعبير وتتعدد وجوهها وتتمايز درجاتها في أداء المتكلمين؟

إن هذا الأمر قد أدى بعبد القاهر إلى البحث عن مراتب الكلام ومستويات المعاني والطرق الكفيلة لتحقيق ذلك.

[61]ينظر:محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة، ص 77،78،79